الإلتفات وأثره في التفسير
(دراسة نظرية تطبيقية)

The Method Of Speeches Transition In The Holy Quran

إعداد الباحث

د. عبد الرحمن يتيم الفضلي

الأستاذ المشارك بقسم التفسير والحديث

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت

باحث مشارك

نايفة عايض العتيبي

طالبة دراسات عليا، بجامعة الكويت ببرنامج التفسير

وعلوم القرآن، للماجستير

ملخص البحث

اهتم الباحث في هذه الورقات بجمع بعض الآيات التي احتوت على أسلوب الالتفات، ثم ذِكر ما قاله علماء التفسير حول نوع هذا الالتفات وغرضه، وبعد ذلك قام الباحث في دراسة هذا الالتفات وتأمله واستخراج العلة أو الحِكْمة أو السبب فيه، وقد قَسَّم الباحث بحثه إلى مقدمة، وتمهيد: فيه: التعريف بالالتفات لغة واصطلاحاً، ونشأته وتطوره، وفائدته.، وست مسائل: وهي: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وأغراضه البلاغية، والالتفات من الخطاب إلى الغيبة وأغراضه البلاغية، الالتفات من التكلم إلى الخطاب وأغراضه البلاغية، الالتفات من الخطاب إلى التكلم وأغراضه البلاغية، والالتفات من الغيبة إلى التكلم وأغراضه البلاغية، الالتفات من التكلم إلى الغيبة وأغراضه البلاغية، ثم الخاتمة: وفيها أهم التوصيات والنتائج.

كلمات مفتاحية : القرآن، التفات، التكلم، الخطاب، الغائب.

* * *

Research recap:

In these papers, t was interested in collecting some of the verses that contained the method of speeches transition.

He mentioned what the interpreters said about the method of speeches transition, its types and educing its purpose .

He also divided his research into introduction, Preface, origins, development and usefulness.

The researcher focused on six issues of method of speeches transition, switching addressee from second to third person or speaker and vice versa.

Then, he wrote down in conclusion the most important recommendations and results.

* * *

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد؛ ما زال العلماء ينهلون من معين القرآن الكريم الذي لا ينضب، فكُلما اغترفوا منه غرفة زاد تعطشهم للمزيد من هذا العذب الفرات، وقد تحدى اللهُ به فصحاء العرب فعجزوا ولم يستطيعوا، فقد حوى أعلى درجات البلاغة ومنتهاها، ومما تضمنه هذا الكتاب العزيز من أساليب أسلوب الالتفات، وهو انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب يختلف عنه، وهذا الانتقال يمثل خروجاً عن القواعد العربية في العادة، وقد رأى الباحث أن يضع لَبِنَة في هذا الصرح الجميع، ويكتب بحثاً بعنوان: (أسلوب الالتفات ومقاصده البلاغية، دراسة نظرية وتطبيقية).

أسئلة البحث:

١- ما هو مفهوم الالتفات ومتى نَشَأَ ؟

٢- ماهي أنواع الالتفات وما هي صوره ؟

أهمية البحث :

١- إن هذه الدراسة تتعلق بأشرف كتاب على هذه البسيطة، ألا وهو القرآن الكريم،

٢- تكرر أسلوب الالتفات في أكثر من موضع في كتاب الله تعالى.

٣- كون الالتفات نوع من أنواع البلاغية التي تحدَّى الله بها الخَلق.

أهداف وسبب اختيار الموضوع:

١- معرفة الالتفات ونشأة تطوره.

٢- معرفة صور الالتفات.

٣- الاطلاع على الفوائد والأسرار التي تضمنها الالتفات.

٤- بيان بعض الآيات التي تضمنت الالتفات في القرآن الكريم.

موضوع البحث:

دراسة أسلوب الالتفات وأنواعه واستخراج حِكَمه وأسبابه.

حدود البحث:

الآيات القرآنية التي جاء فيها أسلوب الالتفات.

الدراسات السابقة:

إن البحث في البلاغة وخصوصاً الالتفات

تكاد لا تجد كتابَ تفسيرٍ يهتم باللغة إلا وقد أشار إليه وذكره، فكُتُب أهل العلم - لا سيما البلاغيين منهم – مُتْرَعة بالالتفات وأنواعه، وقد استفدتُ منها في بحثي هذا من حيث الترتيب والرجوع إلى أصول من كتب في هذا الموضوع، فممن كتب في الالتفات:

- الدكتور/ حسن طبل، في كتابه: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، الناشر: دار الفكر العربي، طبعة: ١٩٩٨م.

- الدكتور/ مازن موفق صديق خيرو، في كتابه: الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني، الالتفات نموذجاً، الناشر: مكتبة دار البيان، طبعة: ٢٠١٠م.

- الباحث/ سلام حسين علوان الدليمي، رسالة دكتوراة بعنوان: الالتفات في القرآن الكريم، في جامعة بغداد، كلية الآداب.

والناظر في هذه الكتب لا شك ولا ريب أنه سيجد أنهم قد توسّعوا في الكلام في الالتفات، وأن الخوض في بحر الالتفات يسعهم ويسع غيرهم، فالقرآن الكريم بِكْرٌ فيه معانيه، وقد يفتح الله للمتأخرين من الفهم فيه ما قد فَتَحه لمَن سبقهم، وهذا ما كان بفضل الله تعالى، فإن القارئ الكريم سيجد في هذه الورقات من الاستنباطات ما أحمدُ اللهَ عليها.

منهج البحث وخطته:

لقد سار الباحث في بحثه على المنهج النظري ثم المنهج التطبيقي لِمّا أصَّله في بدايات بحثه، معتمداً على المراجع الاصلية في البلاغة اللغوية وكتب التفسير.

خطة البحث:

تتكون خطة البحث في مقدمة، وتمهيد، وست مسائل وخاتمة:

التمهيد ، وفيه : التعريف بالالتفات لغة واصطلاحاً، ونشأته وتطوره، وفائدته.

المسألة الأولى: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وأغراضه البلاغية.

المسألة الثانية: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة وأغراضه البلاغية.

المسألة الثالثة: الالتفات من التكلم إلى الخطاب وأغراضه البلاغية.

المسألة الرابعة: الالتفات من الخطاب إلى التكلم وأغراضه البلاغية.

المسألة الخامسة: الالتفات من الغيبة إلى التكلم وأغراضه البلاغية.

المسألة السادسة: الالتفات من التكلم إلى الغيبة وأغراضه البلاغية.

الخاتمة: وفيها أهم التوصيات والنتائج.

التمهيد:

أولًا: تعريف الالتفات:

الالتفات لغةً: لابد لكل مصطلح مِن تعريف لغوي يتم من خلاله التوصل إلى المعنى المطلوب الوصول إليه. وقد عرَّف علماء اللغة الالتفات بعدة تعريفات، منها ما ذكره ابن فارس حيث قال: لَفَتَ: (اللام والفاء والتاء) كلمةٌ واحدة تدلُّ على اللَّيِّ وصَرْف الشيء عن جِهَتِهِ المستقيمةِ. منه: لَفَتُّ الشَّيءَ: لوَيْتُه. ولفَتُّ فُلاناً عن رأيه: صرفْتُه[١].

وقال ابن منظور: «ولَفَتَ وجهَه عن القوم صَرَفَه، والتَفَتَ التفاتاً، والتَلفت أكثر منه، وتلّفت إلى الشيء والتفت إليه: صرف وجهه إليه ..... اللفت: الصَّرْف؛ يقال: ما لفتك عن فلان أي ما صرفك عنه؟ واللفت: لي الشيء عن جهته، كما تقبض على عنق إنسان فتلفته[٢].

والذي يعنينا مما مر من هذه التعريفات المعنى الذي يشير إلى التحول والصَّرف، وسواء كان هذا التحول والصرف في المسير والجهة أو في الكلام والحديث الذي هو مقصود هذا البحث.

الالتفات اصطلاحاً: إن الناظر في كتب أهل العلم لا سيَّما علماء البلاغة منهم يتضح له جليّاً أن الالتفات قد أخذ حيزاً كبيراً من اهتمامهم، فقد عرَّفوه بتعاريف متعددة، وسأنتخب منها: ما ذَكَرَه الزركشي في البرهان حيث قال: «هو نقْلُ الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدراراً للسامع وتجديدا لنشاطه وصيانة لخاطره من الملال والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه»[٣].

ومما ذُكِر للالتفات من التعريفات بأنه: «وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر. قال الله»[٤].

وعرَّفه السيوطي في الإتقان بأنه: «نقل الكلام من أسلوب إلى آخر أعني من المتكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها بعد التعبير بالأول وهذا هو المشهور»[٥].

ومما سبق ذكره من التعريفات يتبين أن الالتفات هو الانتقال بأسلوب الكلام والحديث من لونٍ ونوعٍ من أنواع الكلام الثلاثة (الخطاب أو التكلم أو الغيبة) إلى لونٍ آخر، وذلك تنشيطاً للمستمع أو لعدم الملل من سماع الكلام.

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٢٥٨).
(٢) لسان العرب (٢/ ٨٤).
(٣) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٤).
(٤) البديع في البديع لابن المعتز (ص/ ١٥٢)
(٥) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٨٩).

ثانياً: نشأة الالتفات وتطوره:

إن أسلوب الالتفات كغيره مِن المصطلحات التي مرَّت بمراحل في نشأتها، بَيْدَ أن هذا الأسلوب عُرِفَ منذ عهد مبكر، فكتاب الله تعالى مترعٌ مِن استعمالات هذا الأسلوب البديع. فلا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم منه. وأما بالنسبة للتسمية بهذا العلم وتدوينه فَلَعَلَّ أَوَّلَ مَن نص على تسميه بهذا الاسم هو الأصمعي المتوفى سنة ٢١٣ هـ.

وذكر الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن عن أبي إسحاق الموصلي: قال لي الأصمعي: أتعرف التفاتات جرير؟ قلت: لا، فما هي؟ قال: أتنسى إذ تودِّعُنا سليمى .... بفرعِ بشامةٍ؟ سُقي البشامُ. ومثل ذلك لجرير: متى كان الخيام بذي طلوح - سقيتِ الغيثَ - أيتُها الخيامُ؟ ومعنى الالتفاتات أنه اعترض في الكلام. قوله: «سقيت الغيث»، ولو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتاً، وكان الكلام منتظماً، وكان يقول: «متى كان الخيام بذي طلوح أيتها الخيام»؟ فمتى خرج عن الكلام الأول ثم رجع إليه على وجه يلطف - كان ذلك التفاتاً.»[١].

فهذه الرواية تدل على أن مصطلح الالتفات كان معروفاً منذ القرن الثاني الهجري، وإن كان مفهومه آنذاك يختلف عن مفهومه الذي عُرِفَ به واستقر عليه فيما بعدُ، وهذا يبدو جَلِيّاً في بيت جرير السابق وفي تعليق الأصمعي عليه إذ أن دعاء جرير للبشام بعد الإقبال على شعره إنما هو مجرد تحول من معنى إلى معنى آخر أي أنه غير التحول الأسلوبي الذي سوف يدل عليه المصطلح فيما بعد [٢].

وقد ذَكَر بعض العلماء المتقدمين أسلوبَ الالتفات في كتاباتهم لكن بتعبيرٍ مختلف وصيغة أخرى، فمِن هؤلاء أبو عبيده معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩هـ ، حيث سمَّاه (مجازاً) وذلك في قوله «ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قال الله تعالى:{هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [يونس:٢٢]، أي: (بكم) [٣].

ولا شك أن أبا عبيدة لا يقصد بالمجاز الذي هو في مقابلة الحقيقة، بل يقصد به معنى الالتفات الذي نحن بصدد دراسته. وها

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (ص/ ٩٩).

(٢) انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية للدكتور حسن طبل (ص/١٧).

(٣) انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية للدكتور حسن طبل (ص/٤).

هو الفراء يسير على ما سار عليه أبو عبيده في التفاتهم وتنبّهه لأسلوب الالتفات حيث يقول: «في قوله تعالى: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ}[الحج:١٩]. ولم يقل: اختصما لأنهما جمعان ليسا برجلين، ولو قيل: اختصما كان صواباً، ومثله: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات:٩] يذهب إلى الجمع، ولو قيل: اقتتلتا لجاز، يذهب إلى الطائفتين»[١].

وفي المثالين السابقين يتبين أن مجرد التغيير في الأسلوب قد عدَّه بعض العلماء نوع من أنواع الالتفات، ولو كانت تسميتهم لهذا الأسلوب وصْفُه مغايراً عن التسمية بلفظة الالتفات، فأبو عبيدة جعل التغيير في (الضمير) نوع من أنواع الالتفات الذي عبَّر به بكلمة (المجاز)، وأما الفراء فقد لفّتَ النظر إلى التغيير الذي طَرَأَ على الكلام والانتقال من التثنية إلى الجمع نوع لكن لَمْ يشِر إلى أي كلمة تدل على الالتفات أو المجاز.

ثالثاً: فائدة الالتفات:

قال الزمخشري: ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد[٢].

وذكر الزركشي بعض فوائد الالتفات فقال: «تطرية واستدراراً للسامع، وتجديدا لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه «[٣].

وقال أبو السعود: «لما أن التنقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في استجلاب النفوس واستمالة القلوب يقع من كل واحد من التكلم والخطاب والغيبة إلى كل واحد من الآخرين»[٤].

ففيما سبق من كلام أهل العلم يتضح أن فوائد الالتفات كثيرة، منها أن يكون تنشيطاً للسامع، أو لفْتاً لانتباهه، أو قد يكون طرداً للملل الذي قد يطرأ على المستمع مِن طول الكلام، لا سِيَّما إن كان على رتمٍ ونسق واحد.

(١) معاني القرآن للفراء (٢/ ٢٢٠).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ١٤).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٤).

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١/ ١٦).

صور الالتفات الستة وشواهدها واغراضها البلاغية:

لما كانت البلاغة سر شموخ اللغة العربية وأهم مظاهرها وعذوبة لفظها ورونق جمالها كان للقرآن النصيب الأكبر منها ، و أسلوب الالتفات هو أحد المسالك التعبيرية أو الألوان البلاغية التي يشيع استخدامها في القران الكريم ، بل لعله أكثر الألوان تردداً وأوسعها انتشاراً في ذلك البيان الخالد ، ففي هذا المسألة سأتطرق إلى صور الالتفات في القران الكريم ، وأخص بذلك قول الجمهور في معناه وهي الصور الست التي وضعها السكاكي رحمه الله في كتابه المفتاح باعتبار الضمائر.

المسألة الأولى: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وأغراضه البلاغية.

ومثاله في القرآن الكريم ما جاء في سورة الفاتحة وهو أوّل المواضع التي ذُكِر فيها الالتفات في القرآن الكريم، فقد جاء في بداية سورة الفاتحة قوله تعالى: {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين*الرَّحْمنِ الرَّحِيم*مَالِكِ يَوْمِ الدِّين}[الفاتحة: ١-٤].

موضع التفات: الانتقال من الغيبة في: {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين* الرَّحْمنِ الرَّحِيم* مَالِكِ يَوْمِ الدِّين} إلى المخاطب في: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين}[الفاتحة: ٥]، والأصل : إياه نعبد وإياه نستعين.

قال الزمخشري: «فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة الى لفظ الخطاب؟ ، قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان ، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم»(١).

ومما يظهر عن سر هذا الالتفات الرائع أن فيه تعليماً لأدبِ مناجاة الله تعالى ودعائه، فإن الكلام بدأ بحمد لله ثم الثناء عليه وبعد ذلك تمجيد له سبحانه وكل هذا بأسلوب الغيبة، فلمّا عَلَتْ هذه النفس وسَمَت بهذه المقدمة الرائعة أصبحت الآن كفأً أن تتشرف وتخاطب المولى جل جلاله، والله أعلم.

ومن صور الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ما جاء في سورة الأعراف، وذلك في قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِين}[الأعراف: ١٧٢].

موضع الالتفات: الانتقال من الغيبة في: {أَخَذَ} إلى المخاطب في: {أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ}، والأصل: ألستُ بربِّهم. وفي ذلك يقول أبو السعود: هو السبب في إسناده إلى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ١٣).

الآتي وإضافته إلى ضميره ﷺ للتشريف.[١]

والذي يظهر للباحث أن الالتفات من الغيبة إلى الخطاب باشراك الضمير العائد على النبي محمد ﷺ لزيادة تشريف لذرية آدم بجعل الخطاب شامل لهم ولخير الخلق ﷺ، وفيه أيضاً بيانٌ لإقامة الحجة على هذه الذرية وذلك بتوجيه الخطاب إليهم مباشرة بالإقرار بالربوبية، والله أعلم.

ومن صور الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ما جاء في سورة الإسراء، وذلك في قوله تعالى: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلا * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً}[الإسراء:٦٢-٦٣].

موضع الالتفات: الانتقال من الغيبة في: {منهم} إلى المخاطب في: {جزاؤكم}، والأصل: جزاؤهم. وفي ذلك يقول الزمخشري:» فإن قلت: أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى من تبعك؟ قلت: بلى، ولكن التقدير: فإنّ جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل: جزاؤكم. ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات».

والذي يظهر للباحث عن سبب الالتفات في هذه الآية ترهيب بني آدم من اتباع ابليس وحزبه، وأن شُؤْمَ وعاقبة متابعة شياطين الإنس والجن وخيمة أليمة، ومِن آثارها السيئة الاجتماع في العذاب والنكال يوم القيامة.

ومن صور الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ما جاء في سورة مريم، وذلك في قوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً} [مريم:٨٨-٨٩].

موضع الالتفات: الانتقال من الغيبة في: {وقالوا} إلى المخاطب في:{جئتم}، والأصل: جاؤوا. وفي ذلك يقول البيضاوي: على الالتفات للمبالغة في الذم والتسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى[٢].

ومما سبق يظهر للباحث أن سبب الالتفات هو تقريرهم بعِظَمِ مقولتهم الكفرية، التي مُلِئت سوءَ أَدَبٍ مع الله تعالى وجرأة عليه سبحانه، وهو ما سبب سخط الله عليهم وعقابه لهم.

ومن صور الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ما جاء في سورة النبأ، وذلك في قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً * فَذُوقُوا فَلَنْ

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣/ ٢٨٩).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٢٠).

نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً}[النبأ:٢٧-٣٠].

موضع الالتفات: الانتقال من الغيبة في : {لا يرجون} إلى المخاطب في:{فذوقوا}، والأصل: فذاقوا. وفي ذلك يقول البقاعي: ولما ذكر عذابه ووجه موافقته لجزائهم، سبب عن تكذيبهم ما يقال لهم بلسان الحال أو المقال إهانة وزيادة في الجزاء على طريق الالتفات المؤذن بشدة الخزي والغضب عليهم وكمال القدرة له سبحانه وتعالى[١].

ومما سبق يظهر للباحث أن علّة الالتفات في الآية السابقة هو التوبيخ والتبكيت والإهانة لكل من حاد عن الصراط المستقيم، وذلك بتقريرهم بمعاصيهم أولاً، ثم بعد ذلك بمخاطبتهم مباشرة لا على الغيبة خطاباً يحمل عبارة كلها تهديد وغضب شديد.

ومن صور الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ما جاء في سورة عبس، وذلك في قوله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}[عبس:١-٣].

موضع الالتفات: الانتقال من الغيبة في: {تولَّى} إلى المخاطب في:{يدريك}، والأصل: يدريه. وفي ذلك يقول القاسمي: وفي الالتفات إلى الخطاب إنكار للمواجهة بالعتب أوّلا، إذ في الغيبة إجلال له ﷺ، لإيهام أن من مصدر منه ذلك غيره، لأنه لا يصدر عنه مثله. كما أن في الخطاب إيناساً بعد الإيحاش، وإقبالا بعد إعراض[٢].

ومما سبق يظهر للباحث أن علّة الالتفات في الآية السابقة هو تعليم المسلمين أدب العتاب لذوي المروءات، فإن الباري عز وجل لم يعاتب نبيه محمداً ﷺ مخاطبة مباشرة بقوله عبستَ وتوليتَ أن جاءك الأعمى، بل جاء بالعتاب بأسلوب الغيبة تكريماً لنبيه محمد ﷺ، وهكذا كان هدي المصطفى ﷺ في عتابه للغير، فقد كان بأسلوب لطيف ليس فيه مواجهة تسبب حرجاً لهم، فقد كان يكثر مِن قوله: (ما بال أقوام.....) [٣]، ثم لمّا انهى اللهُ عتابه لنبيه ﷺ أقبل عليه وخاطبه بقوله: {وما يدريك لعله يزكّى} فالخطاب للنبي ولغيره من باب أولى للاهتمام بفئة ذوى الاحتياجات الخاصة وإعطائهم حقهم بالدعوة والرحمة والاهتمام.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١/ ٢٠٨).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٤٠٥).

(٣) صحيح البخاري، كتاب: الأذان، باب: رفع البصر إلى السماء في الصلاة (١/ ١٥٠)، صحيح مسلم، كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (٢/ ١٠٢٠).

المسألة الثانية: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة وأغراضه البلاغية.

ومن صور الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ما جاء في سورة البقرة، وذلك في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِين * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُون * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُون}[البقرة:١٦٨-١٧٠].

موضع الالتفات: الانتقال من الخطاب في :{كلوا} إلى الغيبة في:{لهم}، والأصل: لكم. وفي ذلك يقول الألوسي: «والعدول عن الخطاب إلى الغيبة للتنبيه على أنهم لفرط جهلهم وحمقهم ليسوا أهلا للخطاب بل ينبغي أن يصرف عنهم إلى من يعقله، وفيه من النداء لكل أحد من العقلاء على ضلالتهم ما ليس إذا خوطبوا بذلك»[١].

ومن مما سبق يتبين للباحث أن علّة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة هو أنه لـمَّا كان الحديث عن إباحة الطيبات والتحذير عن متابعة الشيطان في خطواته كان الأسلوب خطاباً لهم مباشِراً وذلك لإقامة الحجة عليهم وتقريرهم بمضمون الكلام، ثم عَدَلَ عن خطابهم إلى الغيبة لأنهم إنما فعلوا ما فعله غيرهم بالتقليد، فكما أنهم لم يملكوا قرارهم بعبادتهم غير الله استحقوا الإعراض عنهم وعدم مخاطبتهم مباشرة، ففي صرف الخطاب عنهم زيادةُ بيانٍ لعظيم ضلالهم وبُعدهم عن الحق، والله أعلم.

ومن صور الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ما جاء في سورة البقرة، وذلك في قوله تعالى: {فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم * هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور}[البقرة:٢٠٩-٢١٠].

موضع الالتفات: الانتقال من الخطاب في: {زللتم} إلى الغيبة في:{ينظرون}، والأصل: تنظرون. وفي ذلك يقول أبو السعود: والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأن سوء صنيعهم موجب للإعراض عنهم وحكاية جنايتهم لمن عداهم من أهل الإنصاف على طريقة المباثة [٢].

والذي يظهر للباحث أن علة الالتفات إلى الغيبة في هذه الآية هي التأكيد أن هذا التهديد ليس خاصّاً بمَن توجَّه له الخطاب في الآية الأولى، بل هو لهم ولكل مَن شابههم في الانحراف والحَيْد عن الصراط المستقيم من بعد ما تبَّن له الحق، فالوعيد شاملٌ للكفار ولمَن يقع

(١) روح المعاني (١/ ٤٣٨).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١/ ٢١٢).

منه الزلل من المؤمنين، فهُم عندما زلُّوا وانصرفوا عن الحق؛ صَرَفَ الله الخطاب عنهم، لأنهم ليسوا أهلاً للتشرف به، والله أعلم.

ومن صور الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ما جاء في سورة النساء، وذلك في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّاباً رَّحِيماً} [النساء:٦٤].

موضع الالتفات: الانتقال من الخطاب في: {جاؤوك} إلى الغيبة في: {واستغفر لهم الرسول}، والأصل: استغفرتَ لهم. وفي ذلك يقول الخازن: ولم يقل: واستغفرتَ لهم، إجلالا لرسول الله ﷺ وتفخيما له وتعظيما لاستغفاره، وأنهم إذا جاءوه فقد جاءوا من خصه الله برسالته وجعله سفيرا بينه وبين خلقه ومن كان كذلك فإن الله تعالى لا يرد شفاعته فلهذا السبب عدل إلى طريقة الالتفات من لفظ الخطاب إلى لفظ الغيبة(١).

ومما سبق يتبين أن سبب الالتفات إلى الغيبة في هذه الآية هو بيانٌ لمكانة النبي ﷺ وتفخيماً لشأنه، وفي إظهار صفة الرسالة وهي أعظم صفات الرسول ﷺ وأجلُّ الأعمال التي يحبها الله تعالى بدلاً من قوله (واستغفرتَ هم) إشعارٌ بأن هذا الاستغفار وهذه الشفاعة عند الله بمكان، فحريٌّ بها أن تُقْبَل ولا تُرَدُّ.

ومن صور الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ما جاء في سورة الأنبياء، وذلك في قوله تعالى: {إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُون}[الأنبياء:٩٢-٩٣]

موضع الالتفات: الانتقال من الخطاب في: {رَبُّكُمْ} إلى الغيبة في: {وتقطعوا}، والأصل: وتقطعتم. وفي ذلك يقول الرازي: والأصل وتقطعتم إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريق الالتفات، كأنه ينقل عنهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء(٢).

ومما سبق يتبين أن العلة في الالتفات إلى الغيبة في الآية السابقة لبيان أن مَن ارتكب هذا الذنب العظيم والفعل القبيح مِن شَقِّ العصا وتمزيق الصفِّ والتَّفرق في الدِّين ليس كفؤاً حتى ينال شرف الخطاب مع الله تعالى، فالله سبحانه يحب الجماعة الواحدة المتفقة على دين التوحيد، ويبغض التفرق في الدين والتحزُّب والتعصب فيه.

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ٣٩٥)

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٨٣).

المسألة الثالثة: الالتفات من التكلم إلى الخطاب وأغراضه البلاغية.

إن الكلام في هذا النوع دقيق وأمثلته شحيحة، فبعد نظر في كتاب الله تعالى لمْ أجد إلا مثالاً واحداً على هذا اللون من ألوان الالتفات، وفي ذلك يقول الدكتور حسن طبل: «في محاولاتنا المتواضعة لاستقصاء مواطن الالتفات في القران الكريم ...لم نجد إلا موطنا واحدا للالتفات في تلك الصورة مما يندر تحققه في لغة الكلام ، وذلك للتوازي أو التباين التام بين موقفي الخطاب والتكلم ؛ ففي الموقف أو السياق الواحد لا يتصور أن يكون الشخص الواحد _إلا على نحو من أنحاء التجوز _ متكلما ومخاطبا، أو مرسلا ومستقبلا في آن واحد «[1].

ومن صور الالتفات من التكلم إلى الخطاب ما جاء في سورة يس، وذلك في قوله تعالى: {وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون} [يس:٢٢].

موضع الالتفات: الانتقال من الخطاب في: {أعبد} إلى الغيبة في: {ترجعون}، والأصل: وإليه أرجع. وفي ذلك يقول ابن الأثير: وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم؛ لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم؛ لأن ذلك أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، وقد وضع قوله: {وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي} ، مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم؟، ألا ترى إلى قوله: {إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ، ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ}[2].

ومما سبق يتبين أن علة الالتفات في هذه الآية من وجهين، أحدهما المبالغة في التلطف في الدعوى، والآخر المبالغة في التهديد والوعيد، فعدما كان الكلام عن الفَطْر والخَلْقِ والذي يقِرُّ به جميع الخلق لَمْ يحتَجْ إلى خطابهم بذلك، ولمّا جاء ذِكْر البعث والنشور والحساب والجزاء الذي هم به كافرون وجَّه الخطاب إليهم إمعاناً في التهديد والوعيد، وأما التلطف في الدعوى فيظهر في صورة النصح لهؤلاء القوم، وأنه قد اختار لهم ما اختاره لنفسه، فقد قال {وما لي لا أعبد}، والأصل أن يقول: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، لأنه ختم الكلام بقوله :{وإليه ترجعون} والله أعلم.

(١) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية (ص/١٤٨).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/ ١٤٠).

المسألة الرابعة: الالتفات من الخطاب إلى التكلم وأغراضه البلاغية.

وهذه النوع من الأنواع النادرة وقوعها في القرآن الكريم، وقد وجدتُ له مثالين اثنين فقط، وذلك حسب طاقتي وجهدي.

فمن صور الالتفات من الخطاب إلى التكلم ما جاء في سورة النساء، وذلك في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً} [النساء: ١٧٤].

موضع الالتفات: الانتقال من الخطاب في: {جاءكم} إلى التكلم في: {وأنزلنا}، والأصل: وأنْـزَل. وفي ذلك يقول أبو السعود في قوله: «وإسناد إنزاله إليه تعالى بطريق الالتفات لكمال تشريفه، هذا على تقدير كون البرهان عبارة عن القرآن العظيم» [(١)].

ومما سبق يظهر للباحث أن علة الالتفات في هذه الآية أنه لـمَّا ذَكَر الباري عز وجل النورَ المبين والذي يقصد به القرآن الكريم لفت الكلام إلى التكلم وذلك حتى لا يُنْسِبَ نزول القرآن إلاّ له سبحانه وحده مباشرة، ولا دخل لأحد في ذلك، لا مَلَك مُقَرَّب، ولا نبي مرسل، والله أعلم.

ومن صور الالتفات من الخطاب إلى التكلم ما جاء في سورة يونس، وذلك في قوله تعالى: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُون} [يونس: ٢١].

موضع الالتفات: الانتقال من الخطاب في: {قل الله} إلى التكلم في: {رُسُلَنَا}، والأصل: رسله. وفي ذلك يقول أبو حيان: والتفاتاً لقوله: {قل الله} أي: قل لهم، فناسب الخطاب. وفي قوله: {إن رسلنا} التفات أيضاً، إذ لم يأت إن رسله[(٢)].

وقال الزركشي أيضاً: «انتقل من الخطاب في قوله {قل الله} إلى التكلم في قوله {رُسُلَنَا} فسبحانه وتعالى نزَّل نفسه منزلة المخاطب»[(٣)].

ومما سبق يتبين أن علة الالتفات في هذه الآية أنه لمّا توجَّه الكلام عن الملائكة الكرام تَغَيَّرَ الأسلوب إلى التكلم وإضافته إلى الله تعالى، إذ أن الملائكة لا يأتمرون إلاّ بأمرِ الله تعالى، فهم {يفعلون ما يُأمرون}.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢/ ٢٦٣).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٦/ ٣١).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٧).

المسألة الخامسة: الالتفات من الغيبة إلى التكلم وأغراضه البلاغية.

ومن صور الالتفات من الغيبة إلى التكلم ما جاء في سورة النحل، وذلك في قوله تعالى: {وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}[النحل: ٥١].

موضع الالتفات: الانتقال من الغيبة في: {هو إله واحد} إلى التكلم في: {فَإِيَّايَ}، والأصل: فإياه. وفي ذلك يقول القاسمي: التفات عن الغيبة مبالغة في الترهيب. فإن تخويف الحاضر مواجهة، أبلغ من ترهيب الغائب، لا سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة والقدرة التامة على الانتقام(١).

ومما يتبيَّن للباحث في علة الالتفات في هذه الآية هي المبالغة في إدخال الرهبة والهيبة في قلوب من توجَّه لهم الكلام، فابتدأت الآية بنهيٍ عن اتخاذ الشريك والند لله تعالى، ثم أكَّد على ذلك بأنه الإلهُ الواحدُ المتفرّدُ بالألوهية والربوبية وصفات الكمال والجلال فعَّالٌ لما يريد، وذلك بقوله {إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ}، ثم ختم هذه الآية بقوله: {فإياي فارهبون} أي: خافوني ولا تخافوا غيري، وذلك بامتثال أوامري واجتناب نواهيي، وفي قوله تعالى: {فإياي فارهبون} فائدة الحصر والقصر، فأصل الكلام : فارهبوا إياي، فقدَّم ما حقَّه التأخير لعلة القصر، أي: ارهبوني أنا لا غيري.

ومن صور الالتفات من الغيبة إلى التكلم ما جاء في سورة النمل، وذلك في قوله تعالى: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} [النمل: ٦٠].

موضع الالتفات: الانتقال من الغيبة في: {وَأَنْزَلَ} إلى التكلم في: {فَأَنْبَتْنَا}، والأصل: فأنبَتَ. وفي ذلك يقول النيسابوري: ومعنى الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: {فَأَنْبَتْنا} تأكيد معنى اختصاص الإنبات بذاته، لأن الإنسان قد يتوهم أن له مدخلاً في ذلك من حيث الغرس والسقي(٢).

والذي يظهر للباحث في سبب الالتفات في هذه الآية هو التأكيد على أن إنبات هذه الزروع وإخراجها مما لا يستطيعه أَحَدٌ إلاّ الله وحده، وهو مما لا طائل للبشر فيه أبداً، فما للإنسان دور فيه إلاّ الحرث والسقي فقط، وقد يَحرُثُ الإنسانُ ويسقي ويُراعي ثم لا يخرج ما حَرَثَه كما أراد، وهذا مصداق قوله سبحانه: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ* أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}[الواقعة: ٦٢-٦٣]،

(١) محاسن التأويل (٦/ ٣٧٨).

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٥/ ٣١٣).

فالإنبات وإخراج أصناف النباتات المختلف ألوانها وطعومها وروائحها دليل على كمال القدرة الإلهية والحكمة الربانية. وهذا - أي: إنبات الزرع - ما قد يدَّعيه بعض البشر وينسبه لنفسه، أما خَلْق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء فما ادَّعاه أحَدٌ من البشر، فكان من الأنسب أن يلتفت بالكلام من الغيبة إلى التكلم تأكيداً لهذه الحقيقة، والله أعلم.

ومن صور الالتفات من الغيبة إلى التكلم ما جاء في سورة الزخرف، وذلك في قوله تعالى: {وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}[الزخرف:١١].

موضع الالتفات: الانتقال من غيبة في: {نَزَّلَ} إلى التكلم في: {فَأَنْشَرْنَا}، والأصل: فأنشَرَ. وفي ذلك يقول محيي الدين درويش: افتناناً في أفانين البلاغة، ولتسجيل المنّة على عباده وقرع أسماعهم بها، ومن هذا النمط في القرآن كثير(١).

ومما يظهر للباحث أن علة الالتفات في الآية هو الرَّدُّ على مَن أنكرَ البعث والنشور، والتأكيد على أن أمْرَ الإحياء بِيَدِ الله وحده، وهذا ما دلَّ عليه لفظ (أنشرنا) الذي فيه معنى الإحياء بعد الإماتة، وجاء تأكيد ذلك في ختْم الآية {كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}، أي: فكما ترون الأرض كيف أحياها الله بعد موتها؛ كذلك يحييكم الله بعد موتكم وينبتُ أجسادكم بعد فنائها، وهذا ما لا يستطيعه أحدٌ إلاّ الله وحده، فناسب أن ينتقل الكلام من الغيبة إلى التكلم، والله أعلم.

ومن صور الالتفات من الغيبة إلى التكلم ما جاء في سورة التغابن، وذلك في قوله تعالى: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[التغابن:٨].

موضع الالتفات: الانتقال من الغيبة في: {بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} إلى التكلم في: {أَنْزَلْنَا}، والأصل: أنزَلَ. وفي ذلك يقول ابن عاشور: وفي قوله: {الذي أنزلنا} «التفات من الغيبة إلى المتكلم لزيادة الترغيب في الإيمان بالقرآن تذكيراً بأنه منزل من الله لأن ضمير التكلم أشد دلالة على معاده من ضمير الغائب، ولتقوية داعي المأمور»(٢).

ومما يظهر للباحث في علة الالتفات في هذه الآية أنه لمّا ذَكَر الإيمان هو أمر غيبي جاء به على أسلوب الغيبة، وعندما جاء ذِكْر القرآن وإنزاله التفتَ إلى أسلوب التكلم وذلك لبيان أن إنزال القرآن الكريم هو أمرٌ خاصٌ به سبحانه، وجاء بالفعل مع نون العظمة لبيان شرف وعظمة

(١) إعراب القرآن وبيانه (٩/ ٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٧٣).

هذا القرآن وعظمة مَن أنزله ومَن نَزَلَ عليه، والله أعلم.

المسألة السادسة: الالتفات من التكلم إلى الغيبة وأغراضه البلاغية.

ومن صور الالتفات من التكلم إلى الغيبة ما جاء في سورة البقرة، وذلك في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون} [البقرة:١٧٢].

موضع الالتفات: الانتقال من التكلم في:{رزقناكم} إلى الغيبة في: {واشكروا لله} والأصل: واشكرونا. وفي ذلك يقول السمين الحلبي: التفاتٌ من ضميرِ المتكلّم إلى الغَيْبَةِ، إذ لو جَرَى على الأسلوبِ الأولِ لقال: واشكرونا[١].

إن مما سبق يتبين للباحث أن علة الالتفات في هذه الآية هو إظهار اسم الله الذي يتضمن أعلى مقامات الروعة والمهابة في نفوس العباد، فالالتفات إلى الغيبة بقوله: {واشكروا لله} أقوى دلالة وأبلغ عبارة مِما لو جرى على أسلوبه في أصل الكلام وهو واشكرونا.

ومن صور الالتفات من التكلم إلى الغيبة ما جاء في سورة البقرة، وذلك في قوله تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} البقرة:٢٥٣].

موضع الالتفات: الانتقال من التكلم في: {فضلنا} إلى الغيبة في: {منهم من كلم اللّهُ}، والأصل: كلَّمْناه. وفي ذلك يقول ابن عادل الحنبلي: وفي هذا الكلام التفات؛ لأنه خروج من ضمير المتكلم المعظم نفسه في قوله: {فضلنا} إلى الاسم الظاهر الذي هو في حكم الغائب[٢].

ومما سبق يتبين للباحث أن علة الالتفات في هذه الآية هو إظهارٌ لاسم الله تعالى، وفي ذلك تفخيم وتعظيم للكلام وتشريف للمُكَلَّم، وفي إظهار اسم الله بأسلوب الغيبة بيان ما للتكليم مِن فضلٍ وشرفٍ فلم يناله - فيما وصَلَنا دليله - إلاّ نبيًّا الله موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

ومن صور الالتفات من التكلم إلى الغيبة ما جاء في سورة الأعراف، وذلك في قوله تعالى: {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ}[الأعراف:١٥٨].

موضع الالتفات: الانتقال من التكلم في: {إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ} إلى الغيبة في: {فآمنوا بالله ورسوله}، والأصل: فآمنوا بالله وبي. وفي

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٢/ ٢٣٥).

(٢) اللباب في علوم الكتاب (٤/ ٣٠٣).

ذلك يقول سعيد حوّى: لِيُعلم أن الذي وجب الإيمان به هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمي، الذي يؤمن بالله وكلماته كائناً مَن كان أنا أو غيري؛ إظهاراً للنصفة وتفادياً من العصبية لنفسه(١).

ومما سبق ذِكره يتبين للباحث أن علة الالتفات في الآية إظهار مدى ما يَتَحَلَّى به نبينا محمد ﷺ مِن تواضع وعدم حب الظهور، فلم يقل: آمنوا بالله وبي، بل قال: {ورسوله} أي: أيّاً كان هذا الشخص، أكان محمداً ﷺ أم غيره، المهم هو الإيمان والنجاة من النار، سواء كان نجاتكم على يدي أنا أم على يدي غيري ممن أرسله الله تعالى للبشر، وهذا هو الأصل في دعوة الناس أن تكون بإخلاصٍ لله تعالى، وأن يكون الهدف الأسمى والأعلى هو إنقاذهم من ظلمات الجهل والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، سواء كنَّا نحن السبب أم غيرنا، لا يهم ذِكْر اسمك في كل مشروع ناجح، المهم هو أن تتصف بالصفات الصالحة للدعوة، وأن تشارك في العمل الدعوي حسب طاقتك وقدرتك، ولو لم يُذْكر اسمك فيه، قال تعالى: {وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ} [النساء:١٦٤].

ومن صور الالتفات من التكلم إلى الغيبة ما جاء في سورة الدخان، وذلك في قوله تعالى: {أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الدخان:٥-٦].

موضع الالتفات: الانتقال من التكلم في: {أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا} إلى الغيبة في: {رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}، والأصل: رَحْمَةً مِنّا. وفي ذلك يقول ابن عادل الحنبلي: التفات من المتكلم إلى الغيبة، ولو جرى على منوال ما تقدم لقال: رحمة منا(٢).

مما سبق ذِكْره يتبين للباحث أن علة الالتفات هنا هو إظهار ما لنبينا محمد ﷺ مِن شرفٍ ومكانةٍ وعناية من الله تعالى، فقد ذَكَر الله تعالى اسم الرب الذي فيه صفة الربوبية التي فيها أكمل المعاني وأجلها، والتي منها العناية والإحاطة والرزق والحفظ، فكل ما يُقدِّره الله تعالى في هذه الليلة المباركة حقيقته رحمة وخيرٌ للمسلم، وإن كان ظاهره ليس كذلك.

* * *

(١) الأساس في التفسير (٤/ ٢٠١٩).

(٢) اللباب في علوم الكتاب (١٧/ ٣١٣).

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث نستطيع أن نلخص جملة من النتائج المتوصل إليها :

١- الالتفات لغة :هو صرف الشيء عن جهته وحقيقته مأخوذ من التفات الإنسان عنه يمينه وشماله.

٢- المعنى الاصطلاحي للالتفات عند الجمهور: أنه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنها بطريق آخر منها .

٣- من حيث نشأة مصطلح الالتفات وتطوره قال بعض العلماء أن الأصمعي هو أول من نص على تسميته بهذا المصطلح ، ثم جاء الزمخشري فعرض مفهوم الالتفات واعتنى ببيان القيمة البلاغية فيه ، وكذلك السكاكي وابن الأثير .

٤- اختلف البلاغيون في تحديد أنواع الالتفات لتشمل ظاهرة التحول والانصراف في كل صورها ، لكن الجمهور يرى أنه يقتصر على الأنواع الستة وهي الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم ، ومن الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ومن التكلم إلى الخطاب ، والالتفات من الخطاب إلى التكلم .

٥- للالتفات فوائد وأسرار بلاغية كثيرة منها تطرية الكلام ، وصيانة النفوس من الضجر والملال ، لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات ، فهذه الفوائد العامة ، أما الفوائد الخاصة فتختلف من باختلاف مجالاتها وسياق الكلام ، وحال المتكلم فيها ، منها تعظيم شأن المخاطب ، والدلالة على الاختصاص ، والتوبيخ ، والاهتمام وغيرها من الفوائد.

التوصيات :

يجب الاهتمام ببلاغة القرآن الكريم ، فالقرآن هو معجزة الله الخالدة الباقية إلى يوم الدين، ويكمن الإعجاز في بلاغته ومعانيه ونظم ألفاظه .

وعلى طلاب العلم الاهتمام بموضوع الالتفات إذ إنه جانب من جوانب الإعجاز البلاغي في القرآن.

المراجع:

- ابن الأثير، نصر الله بن محمد ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة القاهرة.
- ابن المعتز، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي البديع في البديع، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ابن عادل، عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق:

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ .

• ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الناشر: الدار التونسية للنشر، طبعة: ١٩٨٤ هـ.

• ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، طبعة: ١٣٩٩هـ.

• ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، الناشر: دار صادر- بيروت، طبعة: ١٤١٤هـ.

• أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ٢٠١٠م.

• أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل ، الناشر: دار الفكر، بيروت ، الطبعة: ١٤٢٠ هـ .

• الألوسي، محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

• الباقلاني، أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب، إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م

• البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حقيق: محمد زهير، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: ١٤٢٢هـ.

• البقاعي: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

• البيضاوي: عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن، الناشر: دار إحياء التراث العربي، طبعة: ١٤١٨ هـ.

• حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، الناشر: دار الفكر العربي، طبعة : ١٩٩٨م.

• الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ .

• الرازي، محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، تحقيق: مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثالثة ١٤٢٠ هـ.

• الزركشي: محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى، طبعة: ١٣٧٦هـ.

• الزركشي: محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى، طبعة: ١٣٧٦هـ.

• الزمخشري، محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت ، طبعة:١٤٠٧ هـ.

• سعيد حوّى، الأساس في التفسير، الناشر: دار السلام– القاهرة، الطبعة: السادسة:١٤٢٤هـ

• السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.

• السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة: ١٣٩٤هـ .

• الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي ، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر ، الطبعة: الأولى .

• القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: ١٤١٨هـ.

• محيي الدين درويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى، إعراب القرآن وبيانه، الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية، الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥هـ.

• مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة: ١٤٢٦هـ.

• النسفي، عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، طبعة: ١٤١٩ هـ.

• النيسابوري، الحسن بن محمد بن حسين القمي، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ .

* * *